الذريعة الى م

كما يوضحها الراغـ

(الذريعة الى مكارم الشريعة) اسم كتاب من كتب الراغب الاصفهاني ، والعنوان يشير الى المضمون فيجذب القارىء الى معرفة العلة في تمييز المؤلف بين الشريعة ومكارمها ، وحرصه على تحقيق غاية الكمال في شريعة الله سبحانه وتعالى ، والحث على الوصول اليها ٠

والحق ان الراغب لم يتميز وحده بهذه الخاصية ، ونقصد بذلك الرغبة الاكيدة لدى فريق كبير من مفكري الاسلام في محاولاتهم اثارة النفوس لتحقيق الكمالات الانسانية ٠

ويعجبني في هذا المجال وصف محمد اقبال للمثال والواقع ، فهو يرى أنهما ليسا في نظر الاسلام قوتين متعارضتين لايمكن التوفيق بينهما ، وانما يتحقق المثال بالسعي الموصول لجعل الواقع ملائما معه بحيث ينتهي الامر الى استغراقه فيه واندماجه في ذاته ، فيشع النور في كيانه كله (١) وهذا مافعله الاصفهاني في كتابه « الذريعة الى مكارم الشريعة » ، فأرشدنا الى مكارم الشريعة وكيف نصل اليها بواسطة تطهير

كارم الشريعة

ب الأصفهاني

● د. مصطفى حلمي

نفس وتهذيب الاخلاق ، مع تحليله للشخصية الانسانية والوقوف على مكامن قوتها
معرفة أمراضها .

والكتاب كما سيتضح لنا بعد قليل ـ يتضمن نظرية كاملة في الاخلاق ـ ربما
ثر فيها المؤلف ببعض الافكار السائدة في عصره ، ولكنه كان حريصا على تطويعها
تصور الاسلامي .

وقبل الحديث عن نظريته الاخلاقية ، علينا التعريف أولا بالمؤلف وبيان
هجه .

راغب الاصفهاني :

هو أبو القاسم المفضل ، من أهل أصفهان نشأ بها فنسب اليها ثم انتقل الى
داد وتوفر على علوم اللغة والادب والاخلاق والفقه لاسيما التفسير فجمعت مؤلفاته

شتى هذه العلوم وأخذ عنه البيضاوي في التفسير كما كان الامام الغزالي يجل مصنفاته ، ويشمل المطبوع منها :

- « مفردات ألفاظ القرآن »
- أو المفردات في غريب القرآن والحديث
- وله في الحكمة والاخلاق
- الذريعة الى مكارم الشريعة
- تفضيل النشأتين وتحصيل السعادتين

ومن أشهر مؤلفاته في الأدب « محاضرات الادباء ومحاورات البلغاء » ، وهي موسوعة أدبية في النثر والنظم والحكم والامثال مقسمة الى ٢٥ بابا ، كما ينسب اليه كتاب « تحقيق البيان » و « الاخلاق » ولم يستدل من ثنايا مؤلفاته العديد عن مراحل حياته ٠

توفي على الارجح عام ٥٠٢ هـ « ١١٠٨ م » (٢)

منهج الراغب الاصفهاني :

يتضح م نكتابات الراغب تأكيده على ضرورة الشرع ووضعه في مرتبة أسبق من العقل ، فالشرع سائس والعقل تابع ، والشرع قبل العقل ، فنراه يختلف عن محاولات تقريب الشرع من العقل كابن رشد أو الغزالي ، ثم انه يعنى أشد العناية بالعمل ، فالانسان لايصير أفضل موجود الا بالعلم الحق والعمل المحكم (٣)

وأمام صعوبة العثور على بيانات للتعريف بشيوخه ودراساته والمدارس التي تلقى فيها العلم ، فانه لابد من محاولة استخلاص منهجه من كتبه نفسها ٠

يحدثنا الراغب في كتابه « الذريعة الى مكارم الشريعة » عن المنهج الذي ينبغي على طالب العلم اتباعه ، فيقسم العلم الى منازل بادئا « بحفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات » (٤)

نفهم من هذا أنه سلك نفس المسلك ٠

أما النظرة التحليلية للنصوص فلا تبعد بنا عن المغزى العام والمحورالرئيسى الذي تدور حوله افكاره ، اذ يفضل الشرع على العقل لان الشرعيات تجري مجرى الاغذية الحافظة للصحة بينما تجري المعقولات مجرى الادوية الجالبة للصحة ·

ويبدو انه أقرب الى أهل الحديث منه الى المتكلمين بالرغم من حديثه عن العقل ورفعه لشأنه في مواضع كثيرة ، فقد ذكر في أحد المواضع أن ميزان « الدين » هو الذي يوصل الى الحقيقة ، ناقدا المشتغلين بعلم الكلام المعاصرين له بعامة (٥)

على أنه أقرب الى ادماج منهجي الشرع والعقل منه الى التوفيق بينهما ، لأن التوفيق قد يعني اختلاف طبيعة كل منهما ، بينما يرى الراغب أن كلا من الشرع والعقل يكمل أحدهما الآخر فلا استغناء لأحدهما عن غيره ، فلولا العقل لم نلتزم الحجة « ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل وأمر أن نفزع اليه في معرفة صحتها » · ويقول « ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرا » (٦)

وتفسير عبارته أن العقل لايقوم وحده والا وقع في الشك والحيرة بينما يخاطب الدين العقل وهو مناط المسئولية والتكليف ، ثم يصبح اجتماعهما تطابقا بين نور الوحي ونور العقل كما قال تعالى « نور على نور (٧) ، فان محيط العقل محدود بدائرة النظر في ملكوت السموات والارض ، وتلقي الحقائق الغيبية من الوحى الذي أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الانسان بواسطة الرسل والانبياء ولا مجال للعقل الا الفهم والتلقي بالقبول « وما يعقلها الا العالمون » فان فمن صفات العلماء الاقرار بما تعجز العقول عن اكتسابه ، وعلى الحكيم العالم أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم (٨)

ووقف الاصفهاني واقف الناقد لمنهج المتكلمين الجدلي

واذا اقتصرنا على ماأورده في كتابه (محاضرات الادباء) لم نعثر على موقفه الواضح من علم الكلام، لأنه أورد وجهتي النظر المؤيدة والمعارضة، فأتى في معرض مدح علم الكلام مايفيد أنه لازم للدفاع عن الدين في مواجهة غير المسلمين ، ولكنه في موضع الذم أورد عبارة أبي يوسف المشهورة « من طلب الدين بالكلام تزندق » (٩)

ولكنه حدد رأيه في حسم وقطع أثناء حديثه عن لم الكلام في كتابه (الذريعة) فأبان عن آثاره من ايجاد الخصومة بين المتناظرين ، والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة ، اذ لم يذكر الله تعالى الخاصم في موضع الا عابه ، ويشبه المتجادلين بفحلين تعاديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربا » وكل واحد منهج يجتهد أن يكون هو الفاعل وصاحبه المنطبع » (١٠)

واذا كان الجدال مكروه للعلماء الاولياء ، فكيف الجهال الاغبياء ؟ ولهذا عندما أطلق الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم الجدال قيده بالاحسن في قوله عز وجل « وجادلهم بالتي هي أحسن » وقوله سبحانه في ذم الجدل ·

ويبدو أنه لامخرج من هذا الجهل الا الاساس الشرعي والحقائق الايمانية القرآنية فهي الاصول والقواعد فيقول « لاجرم أن كثيرا من مناظراتهم لاتولد الا شبهة ولا تثمر الا حيرة » مؤيدا رأيه بقول الله تعالى (ظلمات بعضها فوق بعض · ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (١١)

وينقد المعتزلة بخاصة الذين اشترطوا لاطلاق المؤمن على الانسان اذا اختبر بأصولهم الخمسة (١٢)

واسترشد الراغب بالآيات القرآنية للاستدلال على مفاهيم متعددة تتناول الغرض من وجود الانسان على هذه الارض مستخلصا فكرة (عمارة الارض) التي عني بها كأحد الاهداف الالهية من خلق الانسان ، وفي نظرته الى « العبادة » لم يقتصر على المعنى الاخلاقي لها كفعل مناف للشهوات ـ كما سنرى تفصيلا ـ ولكنه جعل الاعمال الانسانية كلها لونا من العبادات أي أنه بالاصطلاح الحديث جعل سيطرة الانسان على كل وسائل الانتاج ونجاحه في الاكتشافات العلمية في باطن الارض وظاهرها وتعميرها واستغلال كنوزها واستخدام صنوف الآلات المبتكرة في توفير احتياجات الانسان وتحقيق سعادته والتمتع بالخيرات · وحث على بذل الجهود الانسانية بكافة قواها ـ مباشرة أو بواسطة الآلات ـ للوصول الى تسخير المادة وتحسين « الحياة » على ظهر الارض جاعلا من كل هذه الاعمال لونا من العبادات ·

ودعاه ذلك الى بحث مدلول (الانسان الحضاري) وهو عنده الانسان المؤمن الآخذ بالاسباب المؤدية الى جعله مستحقا لخلافة الله عز وجل في الارض بالتخلق بأخلاقه ـ سبحانه وتعالى ، أي الاخذ بمكارم الشريعة وهي الحكمة والقيام بالعدالة ، جاعلا دور الحكماء يلي دور الرسل والانبياء عليهم السلام ·

ونكتفي بهذه المقدمة للتعريف بالراغب وأشهر كتبه المطبوعة لننتقل للحديث عن مواقفه الميتافيزيقية والاخلاقية وبيان منهجه الذي جمع فيه بين العقل والنقل ومزجهما عن دقة فهم واحاطة، وسنحاول التعبير عن هذا الامتزاج الذي يلمسه القاريء لمؤلفاته النابضة بالحياة والحركة ونخص بالذكر « الذريعة الى مكارم الشريعة » ، فنصحب معه الانسان منذ ولادته الى موتته الاولى ثم بعثه ، ونسير معه على الدرب الطويل ، نرقبه في مجاهداته وصراعاته مع هوى النفس وهواتف الشيطان ، ونرتقي معه الى الكمالات الانسانية المتصفة بأخلاق الله عز وجل ، وننظر واياه الى أعماق النفس البشرية في أحوالها المتعاقبة ، ثم نستمع الى اجاباته الواضحة المحددة عن الاسئلة الملحة التي تراود الانسان في كل عصر ومصر ألا وهي :

لم خلقنا ؟ وكيف خلقنا ؟ والى أين المصير ؟

نظريته الاخلاقية :

من السهل أن نجد في أفكار الاصفهاني التزاما بالتصور الاسلامي للحياة والانسان فالحياة الدنيا في مرتبة أدنى من الحياة الاخرى المأمولة وهي ليست غاية في ذاتها ولكنها معبر للحياة الآخرة الخالدة ، ومن ثم فان الصعاب والمشاكل وألوان المتاعب والكد التي يعانيها الانسان المسلم ينبغي أن يتقبلها عن طيب خاطر ورضى ، فان لم يستطع فبالصبر على مايكره ، فالانسان هنا في دار امتحان وابتلاء ، وكل مايقابله فيها فان عليه أن ينظر اليه بهذا المنظار : انه في مرحلة اختبار ورحلة موقتة ليست دائمة ـ انه على سفر ـ فاذا أصابه خير شكر الله سبحانه ، وان أصابه شرا صبر ، وهو في كلا الحالتين مثاب ·

والانسان في هذه الحياة ، عليه أن يحقق العبودية لله عز وجل من حيث تنفيذ

الاوامر والنواهي ، ورفع راية الحق والعدل والفضيلة وكل ما هو خير حتى تصبح كلمة الله هي العليا ، وعلى العكس ، اجتناب الرذائل والكف عن الظلم والشرور والآثام وغيرها من كل مايتصل بما نهى عنه .

ويحدثنا الاصفهاني في مقدمة كتابه (الذريعة الى مكارم الشريعة) عن الغرض من تأليفه الكتاب ، فيقول انه لبيان الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها اذ باكتساب المكرمة يستحق الانسان أن « يوصف بأن يكون خليفة الله تعالى ، فالعبودية شرف الاتقياء ، والخلافة شرف الصديقين والشهداء » .

وتقتضي دراسة النظرية الاخلاقية عند الاصفهاني أن نستطلع آراءه في أهم الموضوعات التي تطرق اليها ، حيث تكلم عن الانسان من حيث ماهيته مبينا مايفضل به على سائر الحيوان ، وانه على سفر الى الدار الاخرة ، مع بيان الغرض الذي من أجله خلق الانسان ، وعالج الصلة بين العقل وهوى النفس ، كما تطرق الى أنواع الافعال الارادية والغير ارادية ، وأوضح مفهوم السعادة الحقيقية التي ينبغي أن يسعى لها الانسان .

اولا : الانسان

ماهية الانسان :

الانسان عنده مركب من جسم مدركه البصر ، ونفس مدركها البصيرة ، أو من « بدن محسوس وروح معقول » ويستند في ذلك الى تفسيره لقوله تعالى : « اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ، فالروح هي النفس ويرى أن اضافته الى الله تعالى تشريفها لها (١٣)

والانسان أفضل من سائر الحيوان بالعقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي ، وأن كل ماأوجد في هذا العالم فمن أجل الانسان (١٤) ، وهو يعني أن تخصيص الانسان بالعقل يجعله قادرا على التمييز بين الخير والشر ، وقد ارتقى الى درجة الكمال ببعثة الانبياء (١٥) . ويقول في احدى عباراته « وجملة الامر ، أن الانسان

هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق لاجله ، ولهذا قال تعالى « هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا » البقرة ٢٩ . والمقصود من الانسان سوقه الى كماله الذي رشح لـه . (١٦)

وللنفس الانسانية قوتان ، قوة الشهوة وقوة العقل ، فبالاولى يحرص الانسان على تناول اللذات البدنية البهيمية ، وبالثانية يحرص على تناول العلوم .

كما عالج الراغب اختلاف الناس في الخلق ، حيث رأي بعضهم أنها من جنس الخلقة ، و لايستطيع أحد تغيير ماجعل عليه ان خيرا وان شرا ، ويعارض هذا الرأي لأن للانسان قوة تجعله يستطيع أن يتخلق بالاخلاق الحسنة ، فقد جعل الله له سبيلا الى اسلاس أخلاقه ، ولهذا قال تعالى « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » واذا لم يكن الامر كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والامر والنهي ولما جاز عقلا أن نسأل أحدا لم فعلت ؟ ولم أنكرت ؟ وكيف يكون هذا في الانسان ممتنعا وقد وجدنا في بعض البهائم ممكنا ، فالوحشي قد ينتقل بالعادة الى النـاس والجامح الى السلاسة (١٧) ؟!

ومهما اختلف الناس في غرائزهم ، من حيث قبول البعض الى امكان التغيير السريع لأخلاقهم ، والبعض الآخر الى البطء ، والبعض في الوسط ـ الا أنه لاينفك من أثر قبول .

والبواعث على طلب الخيرات الدنيوية ثلاث : أدناها مرتبة الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره ، وهي من مقتضى الهوى واذا فهي من فعل العامة ، والثاني رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه ، وهي من مقتضى الحياء ، وهي لكبار أبناء الدنيا . والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة وهي من مقتضى العقل وفعل الحكماء .

أما البواعث على طلب الخيرات الاخروية فهي ثلاث أيضا : ـ الاول الرغبة في ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه وهي منزلة العامة ، والثاني رجاء حمده ومخافة ذمة وهي منزلة الصالحين والثالث طلب مرضاته عز وجل وهـي منزلة النبيـين

والصديقين والشهداء ، وهي أعزها وأجودها ، وافضل مايتقرب به العبد ، قال تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» فان أفضل مايتقرب به العبد الى ربه عز وجل أن لايريد من الدنيا والاخرة غيره (١٨)

والرقي الانساني نحو الخير يتم بأربع درجات ، أولها ارتدا عالانسان من المآثم وهجرها والندم عليها والعزم على ترك معاودتها – وهي درجة التائبين ، والثانية القيام بالعبادات والمسارعة فيها بقدر الوسع – وهي درجة الصالحين – والثالثة تحري الحسنات بالعلم من غير التفات الى المحظورات بمجاهدة هواه – وهي منزلة الشهداء ، والرابع «أن يكون مع هذه الاحوال المتقدمة يرضى ظاهرا وباطنا بقضاء الله تعالى فلا يتزعزع تحت حكمه ، ولا يتسخط شيئا من أمره ، ويعلم أن الله تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين» (١٩)

اما فعل الخير فهو مشتق من البر أي السعة في الارض وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب وقال صلى الله عليه وسلم (البر طمأنينة والشر ريبة) (٢٠) وهي الامور المحمودة العاقبة ، وهذا هو تفسيره لقول الله تعالى «أنا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا» وقوله عز وجل «وهديناه النجدين» .

ومن حيلة الانسان تحري اللذات ، وهي على ضربين : أحدهما كلذة الملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات ، وهي تابعة للشهوة الحيوانية ، وهي أغلب لأنها أقدم وجودا في بني البشر ، أما النوع الثاني من اللذات فهي لذات معقولة كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل ، ويحتاج الانسان الى أن يقهر لذات الحس بواسطة العقل ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) .

وللنفس عنده نظرتان ، نظرة الى العقل لاستمداد المعارف وتمييز الحسن من القبيح ، ونظرة الهوى ، حيث تنسى الحقائق وتنقاد وراء القبائح ، وتتسم النفس بالشرف اذا أدامت النظر الى العقل ، ولم تأخذ من اللذات البدنية الا بما يمليه العقل المستمد من الشرع ، وعلى العكس فان النفس الدنية تذعن وتنقاد للشهوات ويستبد بها الهوى ، مصداقا لقوله تعالى «أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم» :(٢١)

ويذهب الاصفهاني الى أن الانسان مفطور في أصل خلقته على اصلاح أخلاقه أو فسادها ، أي أنه أثبت له حرية الارادة ، ومع تسليمه باختلاف البشر من حيث الامزجة واختلاف أحوال الوالدين في الصلاح وفي الفساد ، واختلاف ألوان الاطعمة المتناولة ، واختلاف الاحوال في التعليم والتهذيب وتعويد العادات الحسنة والقبيحة (٢٢) وغير ذلك من الامور التي تعد خارجة من نطاق الارادة الانسانية ، وهي من قبيل الظروف الخارجية المحيطة به في الزمان والمكان ، الا أنه يؤكد في النهاية أنه مامن « أحد الا وله قوة على اكتساب قدر من الفضيلة » ، وعلى الانسان أن يبذل قصارى جهده في الحصول عليها ، والرغبة الى الله تعالى في تكفير ماقصر فيه « يتحقق أنه اذا فعل ماأمكنه فقد أعذر لقوله تعالى « لايكلف الله نفسا الا وسعها » وعندئذ قد يزيل عنه الله باقي سيئاته كما قال الله تعالى « يأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم » وقوله عز وجل « أن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (٢٣) وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد ·

٢ ـ الانسان مختار :

يقسم الاصفهاني الاحياء الى ثلاثة أنواع ، نوع لدار الدنيا أي الحيوانات ، ونوع للدار الآخرة وهو الملأ الاعلى ، والانسان بين هذين النوعين يصلح للدارين ، لانه واسطة بين اثنين ، أحدهما وضيع وهو الحيوانات ، ورفيع وهو الملائكة ، فهو كالحيوانات من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمنازعة وغيرها من صفات الحيوانات ، وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والاتصاف بالاخلاق الشريفة كالصدق والوفاء وغيرها وذلك لأن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يرشح الانسان لعبادته وخلافته ، وعمارة أرضه ، وهيأه أيضا لمجاورته في جنته ، فلو خلق كالحيوانات لما صلح للمجاورة بالجنة ، ولو خلق كالملائكة لما صلح لتعمير الارض « فاقتضت الحكمة الالهية أن تجمع له القوتين وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على أن الانسان دنيوي أخروي ، وانه لم يخلق عبثا « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون ؟ » · (٢٤)

اما بالنظر الى البشر في مدى اختلافهم ، فانه يرى أن التفاوت بينهم يظهر للاسباب الآتية :

أولا : اختلاف الخلقة ، هذا المعنى من قوله تعالى « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لايخرج الا نكدا » والاية الاخرى « هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء » ٠ ويستشهد بما روى عن واقعة أصل الخلق « ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة ، فجاء بنو آدم على قدر طينها الاحمر والابيض والاسود والسهل والحزن والطيب والخبيث » (٢٥)

ثانيا : اختلاف طبائع الوالدين وتأثير عامل الوراثة، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم » (٢٦)

ثالثا : اختلاف الوالدين من حيث الصلاح والفساد ، اذ أن الطفل بحكم نشأته بينهما ومخالطته لهما ، قد يتأثر بما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحها (٢٧)

رابعا : أثر الغذاء من حيث الرضاع وطيب المطعم، وبسبب هذا التأثير تصف العرب صاحب الفضل بقولها « لله دره » (٢٨)

خامسا : من حيث التربية والتهذيب وتنشئتهم على التعود بالعادات الحسنة ونبذ القبيحة ، وبيان تفصيل ذلك أخذ الطفل بالآداب الشرعية وأمره بالصلاة لسبع وضربه لعشر طبقا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع ابعاده عن مجالسة الارdياء لانه يتطبع بطبائعهم ، وتعليمه أن يسلك السبيل القويم في أقواله وسلوكه ، وأن يقتصد في المآكل والمشارب ويخالف الشهوة ، « ويمتنع من مفاخره ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ويعود صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع » (٢٩)

سادسا : اختلاف الناس الذين يعيشون معهم ويختلطون بهم من حيث الآراء والمذاهب ٠ (٣٠)

سابعا : مدى الاختلاف في الاجتهاد في تزكية النفس بالعلم والعمل ، فاذا مااجتمع للانسان هذا الركن ، فجاهد في تعرف الحق وزكاها مع توفر الاستعدادات الجيلية من حيث طيب المنبت وصلاح الوالدين وحسن التربية عن طريق الاخذ بالقواعد السالف الاشارة اليها ، بلغ المرتبة العليا من الخيرات من جميع الجهات ، وحق فيه قول الله تعالى « وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار » على عكس من يسميهم بالرذل التام الرذيلة أي بعكس الامور التي ذكرها (٣١)

وهكذا نجد الاصفهاني يقر جانب عوامل الوراثة والبيئة وأصل الخلقة من حيث التكوين البيولوجي ، ثم يحرص على التنويه الا أنه مهما تفاوت الناس في هذه العوامل التي تعد في حكم الجبرية ، الا أنه مامن أحد « الا وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة ، ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والانذار والتأديب » (٣٢) ولذا فان على الانسان أن يبذل قصارى جهده ليكتسب مايقدر عليه من أنواع الفضائل والله تعالى يعذره بقوله سبحانه « لايكلف الله نفسا الا وسعها » ، فالامر الهام والضروري ، هو المحاولة وعقد النية على تغيير سلوكه وتحسينه ، حتى اذا فعل غاية وسعة ، وكان ذلك ايذانا بأن يزيل الله عنه باقي السيئات التي عجز عن التخلص منها ، يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم » (٣٣)

انه يثبت جانب جبري في الانسان ـ يتمثل في عوامل الوراثة والخلقة وظروف النشأة والبيئة ، ولكنه يرى أنه مختار لأفعاله ، ويدعوه الى بذل الجهد واستخدام ارادته الحرة في اصلاح نفسه وتقويم أخلاقه مااستطاع الى ذلك سبيلا ٠

وبالمقارنة بين الانسان والحيوان واشتراكهما في بعض قوى النفس ، فان المستوى الادنى الذي يتفق فيه الانسان مع الحيوان من حيث القوى والطبائع الحيوانية من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل وغيرها ، ولكن الانسان ينتقل الى مستوى أعلى حيث يتميز بالعقل ، بل انه بسبب العقل صار انسانا ، ولكن العقل وحده لايصلح بغير الشرع ، وهنا تظهر أهمية العبادة في السلوك الانساني عند الراغب الاصفهاني « فمن قام بالعبادة فقد استكمل الانسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ عن الانسانية فصار حيوانا أو دون الحيوان » (٣٤) لأنه بالعبادة يحقق الغاية التي من

أجلها خلق كما قال تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » .

فما هي العبادة وما هو دورها في المجال الاخلاقي ؟

العبادة كما يعرفها هي « فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى طاعة للشريعة » (٣٥)

أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التي خلق بها الانسان المشار اليها بقوله تعالى «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» الروم (٣٠) وقوله عز وجل « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغه ونحن له عابدون » البقرة ١٣٨ ــ فالصبغة هي العقول التي تميز بها الانسان عن البهائم والاستفهام في الآية للانكار والنفي ، فلا صبغة أحسن من صبغته تعالى ، ويتساءل الراغب « فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة ، وهي تزيل رين القلب فينطبع فيه صورة الهداية ؟ » (٣٦)

وترتفع العبادة الى أرقى مراتبها عندما يحب الانسان أن يتحرى ابتغاء مرضاة الله ، ويؤديها بانشراح صدر بدلا من مجاهدة النفس « ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ان استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمله ، والا ففي الصبر على ماتكره خير كثير » (٣٧)

٣ ـ الانسان بين الدنيا والآخرة :

يرى الراغب أن الانسان في دنياه مسافر متخذا الدليل على ذلك قصة الخلق اذ قال تعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين » ويستشهد بعبارة علي بن أبي طالب رضى الله عنه « الناس على سفر ، والدنيا دار ممر لادار مقر ، وبطن أمه مبدأ سفره ، والآخرة مقصده ، وزمان حياته مقدار مسافته ، وسنوه منازله ، وشهوره فراسخه ، وأيامه أمواله ، وأنفاسه ، وخطاياه يسار به سير السفينة براكبها » (٣٨)

فالغاية للانسان ينبغي أن تكون دار السلام ، ويحتاج في حاجة الى التزود للسفر وهو في كدح وكبد مالم ينته الى دار القرار ، كما قال تعالى « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .

والناس في طلبها على ضربين :

ضرب انصرفوا عن طلب الآخرة وركنوا الى الدنيا وقالوا « ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » وطلبوا الراحة فيها من حيث لا راحة ، أي أنهم في أعمالهم وسلوكهم يبتغون من الدنيا « ماليس في طبيعتها ، ولا موجودا فيها ولها » (٣٩)

ونفهم من رأي الاصفهاني انحراف هذا الموقف من الناحية الاخلاقية ، لأن أصحابه يسعون في تصرفاتهم نحو غاية لن تتحقق ، مصداقا لقوله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا » .

أما الضرب الثاني من الناس ، فهم الذين عرفوا أنهم يعيشون في الدنيا بصفة مؤقتة كما قال سبحانه « ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين » ومن ثم فقد أصبح الدافع لهم في اعمالهم التزود لدار الخلود فاغترفوا من الزاد الروحاني : كالمعارف والحكم والعبادات ، والاخلاق الحميدة ، لأنهم على يقين من الحصول على ثمرته وهي الحياة الابدية . ان الاستكثار من هذا الزاد محمود « ولا يكاد يطلبه الا من قد عرفه وعرف منفعته » (٤)

ولم ينس هذا الفريق من الناس في الوقت نفسه نصيبه من الدنيا ، فتزود بالزاد الجسماني : كالمال ، والاثاث « زين للناس الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث » ، وغايتهم أن يستعينوا به على الحياة الدنيوية الفانية ، اذ من طبيعة هذا الزاد أن يسترد من الانسان بعد مفارقته للدنيا ، فلا ينبغي الركون اليه والاستغناء به عن الزاد الروحاني اللازم للآخرة « وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع » ويخشى على المستكثر منه أن يثبط صاحبه عن مقصده ، يقول الراغب « والاستكثار منه ليس بمذموم مالم يكن مثبطا لصاحبه عن مقصده ، وكان متناولا على الوجه الذي يجب وكما يجب » (٤١)

ويقصد بالشق الثاني من عبارته التقيد في المعاملات على مقتضى الشرع .

وقد تقصر نفس المرء عن الجمع بين الامرين ، وهنا يجب الاهتمام بما يبقى وتفضيله عما يفني ، أي ايثار الآخرة على الدنيا ، ولا يأخذ من الثانية الا بما يبلغ به دار الخلود ، بشرط مراعاة حكم الشرع والمحافظة على قول الله تعالى « ياأيهـــا الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (٤٢)

ويحرص مفكرنا الاخلاقي على أن يستخدم الانسان قواه التي فطر بها للوصول الى أشرف مراتب السعادة وأعلاها ، وهي السعادة الاخروية الجديرة بأن تعد السعادة الحقيقية ، والتي لاسبيل اليها الا باكتساب الفضائل ، ولذلك قال تعالى « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (٤٣)

وتكتسب الفضائل باستخدام القوى الثلاث التي خص بها الانسان ، أي السعي في استخدام القوى الشهوية في حدود ممارسة الشرع ، واستعمال القوة الغضبيـــة في المجاهدة التي تحميه ، وقوته الفكرية لتحصيل العلم الذي يهديه وعليه ألا يركن الى الخمول والكسل ، بل أن يعمل بقول القائل « ان أردت أن لاتتعب فاتعب لئلا تتعب » فان الانسان أسمى من الحيوان ، واذا كان للحيوان قوة التحرك سعيا لطلب الرزق ، فلانسان قوى العقل الذي ان لم يستخدمه ، فقد أبطل كل نعمة أنعمها الله عليه ، ويصبح وجود العقل عبثا لأن النفس تتبلد بترك التفكر والنظر ، كما يتبلد البدن بتعود الرفاهية بالكسل ، « فحق الانسان أن لايذهب عامة أوقاته الا في اصلاح أمر دينه ودنياه وموصلاته الى آخرته مراعيا لها » (٤٤)

ونرى الاصفهاني مصورا الانسان في حركة دائمة ساعيا نحو غايته ، فهـــو على سفر ، ومقصده الدار الآخرة ، حيث تتحقق له السعادة الدائمة . بل انه يستخدم لفظ « التحريك » معبرا عن هذا التصور للانسان في حركته ، نحو الآخرة ، ويستند الى الحديث « سافروا تغنموا » فانه في رأيه يحث على التحريك الذي يثمر جنة المأوى ، ومصاحبة الملأ الاعلى ، ومجاورة الله تعالى وهي أسمى الغايات .

ولكن الانسان في سعيه هذا يحتاج الى خمسة أشياء : معرفة المعبود المشار اليه « ففروا الى الله » ومعرفة الطريق المشار اليه بقوله « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة » وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليه بقوله « وتزودوا فان خير الزاد التقوى »

والمجاهدة في الوصول كما قال تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » ، وبهذه الاشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله « ولا يغرنكم بالله الغرور » (٤٥)

ثانيا : ماتطهر به النفس :

يقسم الراغب الاصفهاني من حيث الاغراض التي تحققها ، والافعال التي تختص بها ، كالبعير خصص ليبلغنا وأثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه الا بشق الانفس ، والفرس لنصل به الى غاياتنا في سرعة ويسر ، والمنشار لاصلاح المصنوعات الخشبية وغيرها والباب لتدخل به الى المنزل الخ ..

وبالمثل فان للانسان ثلاثة أفعال تختص به وهي :

- عمارة الارض المذكورة في قوله تعالى « واستعمركم فيها » لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره .
- عبادته المذكورة في قوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » أي الامتثال لله سبحانه في عبادته في أوامره ونواهيه .
- خلافته المذكورة في قوله تعالى «ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون» (٤٦)

ولايستحق الانسان الخلافة الا متحري مكارم الشريعة ، وهي الحكمة والقيام بين الناس في الحكم والاحسان والفضل ، والغرض بلوغ جنة المأوى .

ولما كان شرف الاشياء بتمام تحقيق الغرض من وجودها ودناءتها بفقدان ذلك المعنى ، فان الفرس اذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة ، والسيف ان لم يصلح للقطع اتخذ منشارا ، وبالمثل فمن لم يصلح من الانسان لتحقيق ما لأجله أوجد ، فالبهيمة خير منه ، ولذلك ذم الله تعالى الذين ثكلوا هذه الفضيلة « ان هم كالانعام بل هم أضل » (٤٧)

وتحري مكارم الشريعة يحتاج الى أن يصلح الانسان نفسه أولا بتهذيب نفسه قبل غيره ، حيث ذم الله تعالى من يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال سبحانه « ياأيها الذين آمنوا ، لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » ·

وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعلم للتوصل الى الحكمة ، ثم العفة للتوصل الى الجود ، والصبر ليدرك الشجاعة ، والحلم والعدالة لتصحيح الافعال ·

وباستعمال هذه الدرجات فانه أصبح المعنى بقوله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وصلح لخلافة الله عز وجل ·

ويظهر لنا من التفرقة بين مكارم الشريعة والعبادات ، أن العبادات فرائض معلومة ومحددة ، وتاركها يصبح ظالما ، بينما المكارم درجة أعلى من العبادات ، ولذا فان أداء العبادات من باب العدالة ، ولكن التحري بمكارم الشريعة من قبيل النفل والافضال (٤٨)

وهكذا فان الراغب الاصفهاني يضع مستويات أخلاقية لأعمال الانسان فالعدل فعل ما يجب ، والتفضل الزيادة على ما يجب ·

كذلك لايصلح لخلافة الله ، ولايكمل لعبادته وعمارة أرضه الا من كان طاهر النفس ، فكما أن للبدن نجاسة ، فكذلك للنفس نجاسة ، الاولى تدرك بالصبر والثانية تدرك بالبصيرة ، واياها قصد تعالى بقوله « انما المشركون نجس » أو لقوله تعالى « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون » ، كما أشار سبحانه الى طهارة القلوب

بقوله تعالى « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وقوله « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لايخرج الا نكدا » ·

ومن الآيات التي تتضمن معنى التطهر قوله تعالى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقال « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (٤٩)

ولكن كيف يتم تطهير النفس في رأي مفكرنا الاخلاقي حتى يصبح الانسان مرشحا لخلافة الله تعالى ، مستحقا به ثوابه ؟

يرى أن العلم والعبادات هما المطهران للنفس ، اذ أن أثرهما في النفس كأثر الماء الذي يطهر البدن (٥٠) وأدلته على ذلك الآيات القرآنية التي يفسرها بهذا المعنى مثل قوله تعالى « استجيبوا لله والرسول اذا دعاكم لما يحييكم » وقوله تعالى « أنزل من السماء فسالت أودية بقدرها » .

فالآية الاولى تدل على أن حياة النفس في العلم والعبادة .

أما الآية الثانية فقد فسرها ابن عباس بأن الماء يعني به القرآن ، لأن به طهارة النفس ، والاودية هي القلوب التي احتملته بحسب ماوسعته (٥١)

والذي يلزم تطهيره من النفس القوى الثلاث : قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم ـ والحكمة هي اشرف منزلة العلم (٥٢) لأنها العلم والعمل به، ولهذا وصف الله تعالى الذين ليس لهم علم صحيح ، ولا عمل على الطريق المستقيم بقوله « واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون » البقرة ١٧٠ .

فالعقل يقال بالاضافة الى المعرفة والاهتداء بالاضافة الى العمل (٥٣) وتهذيب قوة الشهوة بقمعها لكي تكتسب العفة والجود ، ويتم اخضاع قوة الحمية باستيلاء العقل عليها حتى تنقاد فيحصل الشجاعة والحلم « فيتولد من اجتماع ذلك العدل » (٥٤)

العقل والهوى :

تدور أفكار الراغب الاخلاقية حول تاكيده لازدواج الطبيعة الانسانية ، والنزاع الدائر بين العقل وقوى النفس ، ولايصير الانسان انسانا الا اذا كان العقل

سائسا تخضع قوى النفس لسلطانه ، ويشبه العقل بالوالي الذي اذا تزكى وساس الناس بسياسة الله صار ظل الله في الارض ، وكما أمر الوالي أن يجاهد أعداء المسلمين « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، فانه ينبغي على العقل أن يعادي الهوى ، وكما ينبغي على الوالي أن يسالم الاعداء اذا لم يقو عليهم ، ولكن عليه ألا يركن اليهم تنفيذا لأمره تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » وقوله عز وجل « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » « كذلك يجب للعقل أن يسالم الاشرار من قوى النفس اذا عجز عنها وأن لايركن اليها » (٥٥)

فاذا قوي العقل على النفس التي تعاديه بقوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد طالبة للفساد ، فعليه أن لايداهنها ، شأنه في ذلك شأن الوالي الذي ينبغي عليه اذا أحس بالقوة أن ينقض العهد ، ويظهر المعاداة ، ووسيلة العقل الى هدفه التحصن بالايمان والاستعاذة بالله (٥٦)

وهكذا فان التنازع بين العقل وقوى النفس دائم بينهما ، يصوره الاصفهاني احيانا في حالة الحرب ، وفي حالة السلم فانه يضع ترتيبا تنازليا يبدأ فيها بالقوة العاقلة التي تستضيء بنور الشرع ، ثم يجعل قوى النفس متفاوتة بحيث تخضع لسلطان مافوقها وتأمر مادونها « فحق القوة الشهوانية أن تكون مؤتمرة للقوة الغضبية » وحق القوة الغضبية أن تكون مؤتمره للقوة العاقلة ، وحق القوة العاقلة أن تكون مستضيئة مؤتمرة لمواسمه » (٥٧)

وينتقل الى بيان طبيعة كل من العقل والهوى ، فان العقل يختار دائما الافضل في العواقب ، وان كان شاقا على النفس ، بينما الهوى يؤثر مايدفع به الاذى العاجل غير ناظر في العواقب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » ٠ والعقل في حكمه يرى مالصاحبه وما عليه ، ولكن الهوى يقتصر على رؤية ماله فقط ويعمى عليه مايعقبه من المكروه بينما أكثر الخير في الكراهة كقول الله تعالى « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » وقال « فعسى أن تكرهوا شيئا وجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، ويقوى العقل اذا فزع الى الله تعالى بالاستخارة ، أو طلب العون من العقول الصحيحة بالاستشارة ، وينشرح له الصدر اذا استعان بالعبادة ولكن مايراه الهوى فبالضد من كل هذا ٠

واذا تنازع العقل والهوى في أمر من الامور ولجأ الى قوة أخرى مدبرة بادر نور الله عز وجل الى نصر العقل ، ووساوس الشيطان الى نصر الهوى (٥٨)

والآيات القرآنية كثيرة في النهي عن الهوى في قوله تعالى « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» وقال تعالى في ذم من اتبعه «أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم » وقال « أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب » .

وقال عز وجل في مدح من عصى الهوى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » .

ولكن مع سلطان العقل على الهوى ، فان العقل في حاجة دائما الى الشرع ، فانه لن يكمل « بل لا يكون عقلا الا بعد اهتدائه بالشرع » (٥٩)، فان العقل لا يعرفنا ان لحم الخنزير والدم والخمر محرم ، والا يجب الزواج من ذوات المحارم وأشباه ذلك التي لاسبيل اليها الا بالشرع « فالشرع نظام الاعتقاد الصحيح والافعال المستقيمة ، والدال على مصالح الدنيا والآخرة » (٦٠) وقد جاء الرسل لهداية الخلق الى هذا الحق ، ولهذا قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وهما أيضا يتلازمان ، فكأن العقل هو رسول الله من الباطن الذي يعرف به الانسان صحة دعوى الرسول الظاهر ، وقد أحال الله تعالى من شكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، وتجتمع أسباب الهداية والسداد لمن يجمع بين الاثنين فينطبق عليه قول الله تعالى « نور على نور » (٦١)

السعادة :

يطلق الراغب الاصفهاني السعادة الحقيقية على الخيرات الاخروية ، أما تسمية غيرها بهذا الاسم ، فاما لكونه على ذلك ، أو نافعا فيه « وكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة » (٦٢)

ولهذا فان سعي الانسان يجب أن يتجه لتحقيق هذه السعادة ، حيث البقاء بلا فناء ، والعلم بلا جهل ، والقدرة بلا عجز ، والغنى بلا فقر ٠

ولكن الوصول اليها أمر بعيد المنال ولايتم الا باكتساب الفضائل النفسية وهي أربعة أشياء « العقل وكماله العلم والعفة وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الانصاف » (٦٣) ولذلك قال تعالى « ومن أراد الآخرة وسعى لها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » فنبه أنه لامطمع لمن أراد الوصول اليها الا بالسعى (٦٤)

وللانسان سعادات أبيحت له في الدنيا ، وهي النعم المذكورة في قوله تعالى « وأن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » ولكن الفرق بين النعم الدنيوية والاخروية ، هو أن الاولى تبيد ، بينما الثانية دائمة لاتبيد ٠

والنعم الدنيوية تكون نعمة وسعادة اذا تناولها الناس على الوجه الذي جعل الله لهم ، فأصبحت لهم نعمة وسعادة ، وهم الموصوفون بقوله تعالى « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » ٠

وهناك فريق آخر ركنوا اليها فأصبحت عليهم نقمة فتعذبوا بها عاجلا وآجلا ، وهم الموصوفون بقوله تعالى « انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (٦٥)

واللذات الاخروية لاتدرك بالعقل في هذه الدنيا لأنه يقصر عن معرفتها ، ولهذا فقد قرب الله سبحانه تلك اللذات في الاذهان فشبهها لهم بأنواع ماتدركه حواسهم فقال تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » ٠ وقوله عز وجل في أول هذه الآية « مثل الجنة التي وعد المتقون » يدل على أن ذلك تصوير وعلى سبيل التشبيه (٦٦)

ولئن كان الموت هو الذريعة الى السعادة الكبرى ، وأن الانسان لن يطلع على سعادة الآخرة الا بعد مفارقته لهذا الهيكل أن يزيل الامراض النفسانية المشار اليها

بقوله تعالى «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا» لكي يطلع « من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد له » ، وقد حدث هذا لحارثة الذي قال للنبي عزفت نفسي عن الدنيا ، فكأني انظر الى عرش ربي بارزا ، وأطلع على أهل الجنة يتزاورن ، وعلى أهل النار يتعاونون ·· فقال له النبي « عرفت فالزم » (٦٧)

السعادة الاخروية اذن هي الجديرة بالسعي والعمل ، ولا يجب على الانسان ان ييئس اذا حرم من نعم الدنيا بالرغم من محاولاته ودعواته وابتهاله الى الله ، بل عليه أن يعلم أن نعمته فيما يمنعه من دنياه ، كنعمته فيما خوله وأعطاه (٦٨)

ولا يعد فقدان النعيم الدنيوي خسارة بل هو على سبيل الاختبار والابتلاء ، اذ قال تعالى « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » فان هذه الآية مشتملة على محن الدنيا ، كما بين تعالى ما للصابرين عنده بقوله « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة » أي الذين اذا أصيبوا بهذه البلايا « قالوا انا لله » ، أي أننا ملكا لله وخلقنا له ، فلا يجب المبالاة بالجوع ، لأن رزق العبد على سيده « فان منع وقتا فلا بد أن يعود اليه ، وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك لله ، فله أن يتصرف فيها بما يشاء « وانا اليه راجعون » في الدار الآخرة ، فيحصل لنا عنده مافوته علينا (٦٩)

والمصاب يهون عليه الخطب متى عرف أنه راجع الى ربه ، متذكرا نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وان ما لديه منها اضعاف ما استرد منه ·

أما الخاسر المطلق فهو الذي خسر نعيم الابد ، وهو المذكور في قوله تعالى : « قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » الزمر ١٥ (٧٠) ·

تم بحمد الله وتوفيقه ·

د · مصطفى حلمي

الهوامش والمصادر

(١) محمد اقبال ـ تجديد التفكير الديني في الاسلام ص ١٦
ـ ومما يذكر عن الغزالي انه كان دائم النظر في كتاب (الذريعة) ، كما نقل منه الكثير ، (د ٠ محمد يوسف موسى ـ فلسفة الاخلاق في الاسلام ص ٦٩)

(٢) احمد عطية الله ـ القاموس الاسلامي ص ٤٧٢ المجلد الثاني ـ مكتبة النهضة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ٠

(٣) الذريعة ص ٣٢

(٤) ن ٠ م ص ١١٣

(٥) ن ٠ م ص ١٢

(٦) ن ٠ م ص ١٩

(٧) الذريعة ص ٩٩

(٨) الذريعة ص ١٢١

(٩) محاضرات الادباء ج ١ ص ٢٠

(١٠) الذريعة ص ١٢٨

(١١) الذريعة ص ١٢٧

(١٢) ن ٠ م ص ١٠١

(١٣) تفضيل النشاتين ص ١٧

(١٤) الاصفهاني : الذريعة الى مكارم الشريعة ص ١١

(١٥) القاسمي : محاسن التاويل ج ٢ ص ٢٨٣

(١٦) ن٠ م ص ١٠٩ ، ٥١٠

(١٧) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٩

(١٨) ن٠ م ص ٤٧

(١٩) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٤٩ ٠

(٢٠) ن٠ م ص ٧٢

(٢١) الاصفهاني : تفضيل النشاتين ص ١٥

(٢٢) ن. م ص ٣٠
(٢٣) ن. م ص ٥٤
(٢٤) الراغب الاصفهاني : تفضيل النشاتين ص ١٩ ، ٢٠
(٢٥) ن. م ص ٣٠
(٢٦) ن. م ص ٣١
(٢٧) ن. م ص ٣١
(٢٨) ن. م ص ٣١
(٢٩) الاصفهاني : تفضيل النشاتين ص ٣١
(٣٠) ن. م ص ٣٢
(٣١) ن. م ص ٥٤
(٣٢) ن. م ص ٥٤
(٣٣) ن. م ص ٥٤
(٣٤) بين النشاتين ص ٤٥
(٣٥) ن. م ص ٤٨
(٣٦) تفسير الاسمي جـ ٢ ص ٢٧٤
(٣٧) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٣٤
(٣٨) الراغب الاصفهاني : الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٩
(٣٩) الراغب : تفضيل النشاتين ص ٣٩
(٤٠) الراغب : افضيل النشاتين ص ٣٩
(٤١) ن. م ص ٤٠
(٤٢) تفضيل النشاتين ص ٤٠
(٤٣) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٣٨
(٤٤) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ١٥١
(٤٥) ن. م ص ١٥٢
(٤٦) الراغب الاصفهاني : الذريعة الى مكارم الشريعة ص ١٨
(٤٧) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ١٨
(٤٨) ن. م ص ٢٠
(٤٩) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٠
(٥٠) ن. م ص ٢١ ، ٢٢
(٥١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٢
(٥٢) تفسير القاسمي حـ ٢ ص ٢٦
(٥٣) تفسير القاسمي جـ ٣ ص ٢٧٤
(٥٤) الذريعة ص ٢٢
(٥٥) تفضيل النشاتين ص ٢٢
(٥٦) ن. م ص ٢٢
(٥٧) تفضيل النشاتين ص ٢١
(٥٨) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٥
(٥٩) تفضيل النشاتين ص ٤٤
(٦٠) ن. م ص ٤٣
(٦١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٧٠
(٦٢) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٣٥
(٦٣) ن.م ص ٣٥
(٦٤) ن.م ص ٣٨
(٦٥) تفضيل النشاتين ص ٣٥ ، ٣٦
(٦٦) ن. م ص ٣٧
(٦٧) ن.م ص ٣٨
(٦٨) تفسير الناس حـ ٣ ص ٤٣٤
(٦٩) ن. م حـ ٢ ص ٣٢٦
(٧٠) ن.م ص ١٤٩ .